

فقدت أبي وعلى الكلام أن يلتقط المنجل

(٢)

لا أسمى البرق اللامع في السماء، سنينك الأخيرة.

لا أسمى البيت المضاء على ربوة عالية، سنينك الأخيرة.

لا أسمى الحجر الذي يسد ثلثة في جدار النهار، سنينك الأخيرة.

لا أسمى الطين الممزوج بماء الحكمة، سنينك الأخيرة.

لا أسمى قدما تصعد سلالمة النجاة، سنينك الأخيرة.

لا أسمى الندم وحيدا في أرض الأموات، سنينك الأخيرة.

لكن بعينين غائرتين بالدمع، تنظران إلى نعشك سأسميك أبي فقط.

الريح عينها على التفاصيل حين تقيم ولا تذهب.

(٣)

يدك الحانية حين تمسك يدي بينما أنحني على رأسك أقبله، أقول لك: «شلونك يبه اليوم» أتفاجأ بقبلة من شفئك قد حطت على يدي. آه... كيف لأب أن يقبل يد ابنه؟!

كيف لم أمسك قبيلته قبل أن تطير رائحتها من يدي؟! كيف لم أجرؤ على سحبها؟ ولماذا لم نلتفت أنا وأخوتي إلى تلك الإشارات؟ كانت تكفيننا سلة واحدة نضع فيها كل ما تساقط في أيامه الأخيرة من ضحكاته، قبلاته، حزنه، صمته، رائحته، حكاياته، كلماته حين تجف في ريقه ولا تخرج. ثم نتوازعها فيما بيننا

حتى يقول كل واحد منا: هذا أبي. الواحد المتعدد في صور المرايا هو أبي أيضا.

(٤)

نسغ الأبوة لا يبدأ بفكرة في المخيلة، ولا ينتهي بعصب محفور في الدماغ، أنه أسطورة الحياة، الامتداد الذي يشدك إلى الجذور، ولا تقوى على التخلص أو الانفلات. رغم ذلك نحن لا نعرف آباءنا كما ينبغي، لا نعرف سوى هضبة واحدة من وديانه وسهوله، لا نعرف سوى النزر اليسير من أسرار حياته. ننظر إلى آباءنا منذ الطفولة كما ننظر إلى غابة لا يجرؤ الصيادون على دخولها أو إلى ملك مقرب من عرش الله. القدر مأساة الفرد في الحياة، يحتم علينا أن نفكر في آباءنا بعد فوات الأوان وليس قبله. وعندما تكبر قليلا، وندخل في دروب ومنعطفات الحياة ننظر إليهم باعتبارهم نحن، وكأنهم يعيشون على مقاسات ملابسنا، كلما أخذنا في الطول والعرض قليلا كانوا في نظرنا هم كذلك. لذلك كان يمكننا أن نرفع رؤوسنا ونرقب ما تركته السنون والأيام على حياتهم، دون أن نتماهى مع الإحساس بأنهم آباؤنا. هل يمكن أن يحدث ذلك دون السقوط في فخ الأبوة.

ها أنا الآن أكتب عن أبي وأقول: أحتاج إلى بئر عميقة لا تصل إليها مياه الأعماق كي أطل على نسغ الأبوة في جسدي، أحتاج إلى أنفاس أبي التي تركها على فراش مرضه، على شرشفه وسريره، على نظارته، موبايله، ساعته، وعصاه التي يحبها بلونها الرصاصي. لكن قل لي - إذا ما وهبتني الكتابة للوصول إلى ما أحتاجه - هل بالإمكان معرفة آباءنا كما ينبغي قبل فوات الأوان.